حول أسس الحكم و العدالة الاجتماعية في بلاد الرافدين وأصول ممارستهما

3-1- كيف هبطت الملكية من السماء

يمكن القول اعتماداً على نصوص تعود إلى الفترة البابلية القديمة (1894-1595) ق.م والفترة الآشورية الحديثة (626-539) ق.م على السواء أنه في أزمنة البدء حين عمد الآلهة العظام إلى تقرير المصائر، عقدوا مجلسهم وقرروا للبلاد مصيرها، عينوا من أجل البشر (عيد رأس السنة) ولكنهم لم يعينوا ملكاً على رأس البشر، كما يوضح ذلك النص الآشوري:

"في ذلك الزمان، لم تكن العمامة ولا التاج
يعصبان الجبين
ولم يكن صولجان يزينه اللازورد
ولم يكن خُلِقَ بعد أي عرش في أي مكان"

ويضيف النص البابلي القديم:

"إن الصولجان والتاج والعمامة والعصا
جميعها كانت أمام "آنو" (Anu)[1]
مودعة في السماء
لم يكن هناك حاكم لشعب "عشتار" (Ishtar)[2]
عند ذلك نزلت الملكية من السماء."

يتابع النص الآشوري ليعلمنا:

"أنّ (عشتار) كانت ترغب
أن يكون للبشر من يرعاهم

---

[1]- آنو (Anu): إله السماء السومري.

[2]- عشتار (Ishtar): إلهة الحب والخصب وسيدة المعارك.

وكانت تفتش عن ملك (من أجل البلاد)
و (لأنه لم يكن هناك) ملك في البلاد
عند ذلك هبطت الملكية من السماء".

يتفق المفهومان الأقدم والأحدث بأن الملكية هبطت من السماء وواضحة هي العلاقة بين الملكية في البلاد وآلهة السماء ولكن كيف يعمد الإله إلى اختيار الملك راعي الشعب؟ وراعي البلاد؟

ففي توازٍ قديم آخر يقول نص بأن:
"الإلهة حين لم تكن قد أقامت ملكاً
كان الشعب تلفّه الغيوم".

حيث لم يكن هناك ملك مكلّف برعايته وبالسهر على تسديد خطاه يتّضح هنا أول دور اجتماعي للملك بالإضافة إلى ما أراده له الإله "حين نظر إليه بعين الرضا" أو "حين لفظ اسمه" وليس من المستبعد أن يكون تصرف الملك، قبل اختياره، تجاه الإله أو الآلهة في تقواه وخدمته للإله وفي إخلاصه هو الذي نتجت عنه "نظرة الرضا" والاختيار.

3-2- الملوك يتحدثون عن اختيارهم وعن دورهم

يفهم ذلك من نصوص ما بين النهرين التي تتحدث عن ملك معين أو من النصوص التي تركها لنا الملك نفسه معبِّراً عن اختياره هو دون غيره:

• فالملك السومري "إيَنّاتوم" (**Eannatum**) حوالي 2450 ق.م ملك "لغش" (**Lagash**)[1] يقول متحدثاً عن نفسه بأنه: "**هو الذي لفظ اسمه الإله "إنليل" (Enlil)**[2] **ومنحه الإله "نينجيرسو" (Ningirsu)**[3] **القوة، وهو الذي تصورته الإلهة "نانشي" (Nanshe)**[4] **في قلبها ورضع حليب "نينحورساج" (Ninhursag)**[5] **المقدس والذي أعطته "إنانّا" (Inanna) اسماً**".

---

[1]- لغش (Lagash): إلى الشمال الشرقي من أوروك.

[2]- إنليل (Enlil): سيد مجمع الآلهة.

[3]- نينجيرسو (Ningirsu): هو سيد (جيرسو) وإله مملكة (لغش).

[4]- نانشي (Nanshe): سيدة لغش.

[5]- نينحورساج (Ninhursag): الإلهة - الأم.

• أما ملك (لغش) "جوديا" (Gudea) (حوالي 2120 ق.م) فهو الراعي الذي تصوره الإله (نينجيرسو) في قلبه والذي نظرت إليه الإلهة (نانشي) بعين الرضا وهو الذي منحه "نينـدار" (Nindar)[1] القوة كما هو الرجل الذي قدّمت الإلهة "بابا" (Baba)[2] وصفه وجعله إلهه الخاص "نينجيسزيدا" (Ningiszida)[3] يقف في المجموعة مرفوع الرأس.

تتابع النصوص الأحدث، استعمال تعابير مماثلة مضيفةً عليها تعابير جديدة:

• فهذا هو (حمورابي) (1792-1750) ق.م يكتب في مقدّمة تشريعه: "**عندما "شمش" (Shamash)[4] ذو الوجه المشّع نظر إليّ بابتهاج، أنا حمورابي راعيه المفضل**".

• أما (شلمنصر) الثالث (858-824) ق.م ملك آشور فإنه كتب يقول: "**عندما قرر الإله الكبير "آشور" (Assur)[5] في قلبه الثابت اختارني بنظره المبهر**".

• وكذلك يكتب "أسرحدّون" (Assahaddon) (680-669): "**في بهجة قلبها رفعت الآلهة نظرها نحوي واختارتني لأكون ملكاً شرعياً**".

• ويقدم "آشوربانيبال" (Assurbanipal) (668-627) أخيراً نفسه معلناً: "**الإلهان "آشور" (Assur) و "سين" (Sin)[6] لفظا اسمي من أجل السيادة، منذ أزمنة بعيدة**".

• أما "نابونيد" (Nabonide)[7] (556-539) وهو آخر ملوك بابل يرى أن الإله (سين) وقرينته "نينجال" (Ningal) "**قررا له ان يحكم حين كان في رحم أمه**".

كل ذلك يعني، أنّ الاختيار الإلهي وليست الوراثة هي التي كانت تنصّب الملوك مع أن اللوائح الملكية سواء أكانت سومرية، أم بابلية أم آشورية، يتضح منها

---

[1]- نينـدار (Nindar): إله سومري قديم.

[2]- بابا (Baba): الإلهة قرينة نينجيرسو.

[3]- نينجيسزيدا (Ningiszida): إله مثل (دوموزي - تموز) يموت ويبعث في الربيع.

[4]- شمش (Shamash): إله العدالة الأكادي يقابله الإله أوتو (Utu) السومري.

[5]- آشور (Assur): إله الآشوريين الرئيسي.

[6]- سين (Sin): إله القمر.

[7]- نابونيد (Nabonide): كان من الذين تعبدوا بورع إلى الإله سين وهو الذي أهمل ملكه وكان أن سقطت بابل على زمنه.

توريث العرش من الأب إلى الابن كان يتم في معظم الأحيان وكان عند ذلك الاختيار الإلهي أو نظرة الرضى تأتيان دعماً للملك الجديد ومبايعة له، ولكن فكرة الاختيار الإلهي ليس من الصعب الاعتبار أنها أتت بعد تنصيب الملك لأن الإله برضاه عنه ساعده للتوصل إلى الحكم وبصرف النظر عن الطريقة التي أوصلته إلى العرش، فسرجون الكبير مثلاً توصل إلى الحكم بنتيجة تقلص سلطة (أور) و (أوروك) السومريتين، كما أن حمورابي توصل إلى الحكم محققاً حلمه بجعل (بابل) القرية الصغيرة آنذاك، بحيث تصبح عاصمة العالم القديم وذلك بعد إخضاع المدن المحيطة ببابل، ففي عام 1763 ق.م أخضع حمورابي مملكة "لارسا" (Larsa) وبعد عام واحد أخضع مملكة "إشنونا" (Eshnuna)[1] وأنهى بعد ذلك وجود مملكة "ماري" (Mari) وتمّ ذلك في عام 1759 بعد تفريغها من غناها وهدمها، تاركاً لابنه "شمسي - إيلونا" (Shamsi - Iluna) (1749-1712)، إمبراطورية أضاعها الملك الابن خلال 12 سنة من حكمه ولم يكن كوالده حمورابي محارباً ودبلوماسياً متفوقاً.

انتصار كل من سرجون الكبير الأكادي وحمورابي لا يعني وفق ما أوردناه آنفاً، سوى رضا الإله والآلهة بصدد نجاحهما ومثل هذا الاعتقاد يبني بين الإله والملك علاقة طواعية تضطر الملك أو توجب عليه احترام الإله فيما يتعلق بعدالة حكمه أي أن يحسن رعاية شعبه لأنه اختير من أجل ذلك.

وهنا يمكننا القول، إن سكان ما بين النهرين وفي أعماق معتقدهم الروحي كانوا يؤمنون بتبعيتهم وخضوعهم لإرادة الآلهة، كما كانوا يؤمنون أن الإله في رحمته يريد أن يتمتع الشعب بحكم عادل، يعني ذلك أن سكان ما بين النهرين كانوا على ثقة تامة ومطلقة بأن الآلهة جعلت من العدالة أساساً للحكم:

• إذ أننا في نص لـ "آشور نصير آبال" (Assur - Nasirabal) الثاني (883-859) نقرأ أن الإلهة "عشتار" (Ishtar) وضعت في يد الملك صولجان العدالة.

• كما أن حمورابي يعلن في مقدمة تشريعه إن الإلهين "آنو" (Anu) و "مردوك" (Marduk)[2] دعواه لكي "ينشر العدالة في البلاد، ويزيل الشر، ويعاقب المذنب ويحول دون ظلم القوي للضعيف".

---

[1]- إشنونا (Eshnuna): إلى الشمال الشرقي من بابل.

[2]- مردوك (Marduk): إله بابل الذي أصبح سيد الآلهة بعد نشر قصيدة التكوين والخلق وهو بطلها.

• حتى أن "كورش" (Cyrus) الفارسي الذي أخضع بلاد ما بين النهرين بنى ملكيته وفق النظام البابلي حين أعلن أن "**مردوك بعد أن استعرض كامل البلاد ونظر إليها، فتش عن ملك عادل يناسب قلبه، ثم اختاره ممسكاً بيده ولفظ اسم (كورش بن آنوهان) وعيّنه من أجل الملكية على كافة البلاد.**"

العدالة الاجتماعية والدفاع عن حق اليتيم والأرملة وإنصاف المظلوم وكذلك تحرير الضعيف من تسلط القوي، جميعها قواعد مثالية لأصول ممارسة الملكية، نتجت عن نزول الملكية من السماء وجعلت الملك مسؤولاً في حكمه عن تنفيذ إرادة الإله، وعلى هذا الأساس وعبر تتابع الفترات التاريخية الطويلة بين سومر وأكاد وآشور من بلاد ما بين النهرين تمّ التوصل إلى ابتكار أدب لأصول الحكم نتج عن مجموع ما أعلنه ملوك وحكام وعن تصرفهم أمام شعوبهم وتدخلهم من أجل نشر العدالة وإزالة الظلم وتحقيق رخاء الشعب.

كما سوف تتضح عبر هذا العرض بعض القواعد الإيجابية والبناءة التي اتبعها الملوك في ممارسة حكمهم من ضمن استعراض المآثر التي عرفوا بها بتنفيذهم أعمالاً تخدم مصلحة شعوبهم وتشهد بحسن إدارتهم ورعايتهم لمصالح شعوبهم.

3-3- عواقب ابتعاد الملك عن دور خدمة الشعب

ولا بد لنا في هذه المناسبة من الإشارة إلى نص تحذيري نشر بذكاء حين كان البابليون يخشون على مصيرهم ومصير مدينة بابل عاصمة الإله مردوك المقدسة أمام سيطرة آشور على الحكم، ومن المرجح أن النص التحذيري كتب خلال حكم (سنحريب) (704-681) ق.م، وبالطبع قبل أن يقوم هذا الملك بهدم بابل في عام 689 ق.م.

عمد مؤلف النص وهو بابلي إلى اللجوء إلى أسلوب غير مباشر، مشيراً إلى عواقب قيام الملك بأعمال غير مرضية بالنسبة للأعراف والتقاليد والتي تغضب الإله وتسوّغ انتقامه من المخالف مهما يكن مركزه.

يقع النص في 55 فقرة لم يحل نشرها مع الأسف دون هدم (بابل) من قبل سنحريب، إلا أن (آشور بانيبال) (668-627) المثقف، وصاحب مكتبته الشهيرة في نينوى رأى أن النص التحذيري هو جدير بأن تطّلع عليه أجيال المستقبل، ولذلك حفظه لنا وهو يمثل نوعاً من القواعد الأخلاقية وما على الملك الحاكم تحاشي

القيام به ونقدم هذا النص فيما يلي مع إضافة بعض العناوين على فقراته تسهيلاً لمتابعته:

احترام الحقوق	إذا لم يعر الملك اهتماماً للحقوق
	فإن شعبه تعمه الفوضى
	وبلده يعرف الاجتياح
	إذا لم يعر الملك اهتماماً لحقوق بلده
	فإن "إيا" (Ea)[1] الإلهي ملك المصائر
	يبدّل مصيره ويدفعه دوماً نحو سوء الطالع
الأخذ برأي الحكماء والمستشارين	إذا لم يعر الملك اهتماماً (للحكيم المرافق له)
	فإن أيامه تقصر
	إذا لم يعر اهتماماً لمستشاره
	فإن بلده يثور ضده
الأخذ برأي النذل أو العمل برسالة إله الحكمة (إيا)	إذا أعار اهتمامه لنذل فإن عقلية البلاد تتغير
	إذا ما اهتّم برسالة (إيا)، فإن الآلهة العظام
	يقودونه دوماً نحو الشورى وعلى مسارات العدالة
عقوبة ظلم المواطن وإنصاف الغريب	إذا ما حكم ظلماً على مواطن من "سيبار" (Sippar)
	بينما ينصف غريباً، فإن "شمش" (Shamash)
	قاضي السماء والأرض يدخل إلى البلاد
	قانوناً غريباً
	بحيث الحكام والقضاة لن يهتموا بالعدالة
عقوبة الرشوة في ممارسة العدالة	إذا ما مثل أمامه مواطنون من سيبار للمحاكمة
	ولأنه تلقى رشوة يعمد إلى ظلمهم

[1]- إيا (Ea): إله الحكمة والذكاء وهو الذي بيده تقرير المصائر والأبسو Apsu مقره المائي.

	فإن "إنليل" (Enlil) الإلهي سيد البلاد، يوجه إليه
	عدواً آتياً من الخارج، يتغلب على جيشه
	بحيث وجهاؤه وضباطه المخصيين، يهيمون
	في الشوارع مثل باعة متنقلين.
عقوبة الملك الذي يستولي على فضة مواطني بابل	إذا ما استولى على فضة مواطني بابل
	ليضعها في بيت ماله الخاص، أو إذا ما أعلم
	عن أهمية القانون بالنسبة للبابليين
	واعتبره عديم الأهمية، فإن "مردوك" (Marduk)
	سيد السموات والأرض، ينصّب عدوه فوقه
	ولأعدائه يقدم لهم هدية أمواله وممتلكاته
عواقب رمي المواطنين في السجون ظلماً	إذا ما عمدإلى فرض عقاب أهالي "سيبار" (Sippar) و"نفّر" (Nippur)[1]
	أو (بابل)
	وإذا ماتم رميهم في السجون ظلماً، فإن المدينة
	حيث لفظ الحكم، سوف تزال حتى الأساس
	والمدينة التي تمّ رميهم فيها يدخلها عدوّ خارجي
عواقب العمل الإجباري أو السخرة	إذا ما صادر رجال (سيبار) و (نفّر) و (بابل)
	كما يتم ذلك في مواقع أخرى ويفرض عليهم أعمال
	سخرة
الخدمة العسكرية لسكان المدن الثلاثة	وإذا ما أجبرهم على الخدمة العسكرية، استجابة
	لدعوةِ منادي الملك، فإن مردوك
	الأكثر حكمة بين الآلهة والإله الذكي، يسلّم
	بلد الملك إلى أعدائه بحيث يخضع جنوده

[1]-نفّر (Nippur): إلى الشرق من جنوب بابل على بعد 85 كم.

	إلى أعمال جبرية لحساب عدوه
	فإن "آنو" (Anu) و "إنليل" (Enlil) و "إيا" (Ea) الآلهة العظام
	الذين يقيمون في السماء والأرض
	كانوا قد قروا لمواطنيه في مجمعهم
	صفة المواطنين الأحرار
عواقب الاستيلاء على علف أهالي المدينة	إذا ما قدم لأحصنته العلف الخاص بأهالي (سيبار)
	و (نفّر) و (بابل) فإن الأحصنة التي أكلت هذا
	العلف، سوف تحمل نير العدو
عدم خضوع سكان المدن الثلاثة للخدمة	إذا ما تمّ تجنيد سكان تلك المدن، بمناسبة
	التعبئة، وإذا ما جُنِّدوا مع عساكر الملك
	فإن "إيرّا" (Erra)[1] الإله القوي الذي يسير على رأس جنوده
	سوف يفكك جبهة جنوده لتلتحق بصف عدوه
عواقب تسليم ثيران الأهالي إلى الغرباء	إذا ما سمح أن تزال المكادن عن ثيرانها
	وإذا ما استبدلت حقولها بغية تسليمها إلى غرباء
	فإن بلد الملك سوف تجتاحه أمطار
	طوفانية مبيدة
عواقب الاستيلاء على تكاثر القطيع	إذا ما سمح ان يستولى على تكاثر القطيع فإن "أدد" (Adad)[2]
	الإله المختص بمحابس السماء والأرض
	سوف يبيد بالمجاعة حيوانات القرى
	ويكدسها كقرابين أمام "شمش" (Shamash)

[1]- إيرّا (Erra): إله العالم السفلي.

[2]- أدد (Adad): إله العواصف والأمطار.

عواقب سوء عرض القضايا أمام الملك	إذا ما عمد مستشار الملك والضبّاط المختصّون
	المقربون من البلاط إلى عرض قضاياهم
	بشكل أسوأ مما هي عليه بغية الاستحصال على
	مكافأة فإن (إيا) ملك المياه الجوفية الإلهي
	سوف يجعل المستشار والضباط، يقضون في الحرب وفي الأماكن التي ارتادوها، وما عملوه
	سوف يكون هباءً
بطلان الارتباط بواسطة القسم للمدن الثلاثة	إذا ما أعلن إلغاء الارتباطات المعقودة
	تجاه سكان تلك المدن، وإذا ما استبدلت
	أنصابهم المكتوبة، وإذا ما أجبروا على الذهاب
	بعيداً في حملات عسكرية
	وإذا ما أجبروا على التكفل بارتباطات بواسطة القسم
	فإن "نابو" (Nabu)[1] كاتب الـ "إيساجيل" (Esagil)[2] الإلهي
	الذي يراقب كامل أطراف السماء، والأرض ويدير
	الكون وينصّب الملوك، سوف يعلن ارتباطاتهم
	لاغية بالنسبة لبلد هذا الملك
	ويخصص النكبة كمصير له
عدم فرض عمل جبري لمصلحة المعابد على سكان المدن الثلاثة	إذا ما عمد راع[3] أو قيّم على معبد أو ضابط مخصّي
	في خدمة الملك، وإذا في (سيبار) و (نفر) أو في (بابل)
	كان يشغل وظيفة قيّم على المعبد، وإذا ما فرض
	على سكان تلك المدن عملاً جبرياً لمصلحة

[1]- نابو (Nabu): إله الكتابة البابلي وهو ابن الإله مردوك.

[2]- إيساجيل (Esagil): معبد الإله مردوك في بابل ومعناه البيت ذو الرأس الشامخ.

[3]- المقصود هو الملك يراعي الشعب.

معابد الآلهة العظام، فإن هؤلاء الآلهة العظام	
سوف يغادرون هياكلهم غاضبين	
ولن يعودوا إليها أبداً	

على الرغم من أن تلك التحذيرات، كانت تتعلق بمدن (سيبار) و (نفّر) و (بابل) التي كانت، على ما يظهر يتمتع سكانها بحصانة تستوجب معاملة خاصة لهم والتي كما يرجح كانت ترتبط بقدسية تلك المدن.

فإن تلك التحذيرات صيغت وكأنها دفتر شروط أراد المؤلف إبلاغه للملك وهي تمثل ما على الملك أو جهازه تحاشيه إذا ما أراد أن يكون حكمه عادلاً ومنصفاً ومحترماً للحقوق المكتسبة بالنسبة لقرارات الآلهة العظام التي اتخذوها خلال انعقاد مجمعهم وإقرار صفة المواطنين الأحرار كما ورد أعلاه ضمن هذا النص وعلى هذا الأساس يمكن أن تبقى متمتّعة بحماية الآلهة.

3-4- الملوك والعدالة

تروي أسطورة (إنانا) وسفينة السماء، أن الإلهة غادرت مدينتها "أوروك" (Uruk)[1] متوجهة إلى "إريدو" (Eridu)[2] على سفينتها، سفينة السماء لزيارة الإله "أنكي" (Enki)[3] وكانت الغاية من الزيارة تقديم الولاء لأنكي والعودة إلى أوروك محمّلة بما نسمّيه تبسيطاً بأسس الحضارة بغية الرفع من شأن مدينتها.

لدى تكريمها من قبل الإله أنكي وبعد جلستهما لارتشاف الجعة وبنتيجة النشوة التي عرفها أنكي خلال تلك الجلسة، قدم لها هدية جمع أسس الحضارة التي تسود في مدينته وهي عديدة ومتقدمة في تطورها ومن بينها:

- التاج الشرعي و العرش الملكي
- الاحترام و الاستقامة
- الصولجان السامي و عصا القيادة

---

[1]- أوروك (Uruk): مدينة البطل جلجامش، تقع في الشمال الشرقي من مدينة لارسا.

[2]- إريدو (Eridu): مدينة الإله أنكي (Enki).

[3]- أنكي (Enki): إله الحكمة والذكاء ومهارة الصنع.

- الرداء الملكي و الرعوية
- الملكية و مطابقة الحقيقة
- اللباس الأسود و اللباس متعدد الألوان
- الجوقة الصوتية و فن الغناء
- القناعة و الرخاء
- التجوال و أماكن السكن
- فن الخشب و شغل المعدن
- فن الكتابة و فن صب المعادن
- فن النسيج و فن العمارة
- الذكاء و مهارة الصنع
- فن المحاكمة و اتخاذ القرار
- ..... و .....إلخ[1]

الأسس الحضارية التي عددناها، تشير في بداية الألف الثاني ق.م إلى ما وصلت إليه القيم وأصول الحكم في ما بين النهرين، ولا يخلو الأمر من واقعية، أدخلت الكذب والرياء مقابل صراحة القول، ثم مقابل الاستقامة أدخلت الخداع وأدخلت الثورة أمام فن إسداء النصح والتهدئة.

يمكننا في مثل هذا التعداد ربط التاج الشرعي والعرش الملكي ودور حامل الصولجان السامي وعصا القيادة بدور الملك وما عليه تحقيقه من ضمن الرعوية رعوية الشعب المكلف بها وذلك عن طريق الاستقامة ومطابقة الحقيقة وتحقيق العدالة للجميع.

والعدالة وفق ما وصلنا من نصوص سومر شغلت كثيراً الملوك الذين أيقنوا أهميتها وأرادوا التحلي بها، حتى أن مجموعة الأخبار السومرية[2] عممت بأن الملوك السومريين:

---

[1]- ورد النص الكامل لأسطورة إنانا في الكتاب الثاني من ديوان الأساطير ص. 194.

[2]- Chroniqsues sumeriennes.

يقـــــــدرون:	"الطيبة والحقيقة،
	احترام القانون والنظام،
	العدالة والحرية
	الاستقامة والصراحة
	الشفقة والرحمة"
يمجّـــــــون:	"الشر والكذب،
	الفوضى واختلال النظام،
	الظلم والاستبداد،
	الأعمال الشائنة وانحراف الغرائز
	القساوة وفقدان الإحساس"

وهكذا يمكن القول أننا نجد هنا قواعد وأسس ممارسة الملكية الفاضلة وتحاشي انحرافاتها وفيما عدا ذلك يمكن القول أن أحوال المملكة تسوء وتعمها الفوضى ويعني ذلك تمرد المظلومين وثورتهم أو قيام ملك مصلح بإبعاد المستثمرين وصيانة الحقوق:

4-3 (آ) أول انقلاب اجتماعي في عالمي الآلهة والبشر:

خلال فترات الحكم السومرية الأولى يوم كانت الممالك تدور حول مركزية المعبد في كل من "أوروك" (Uruk) و "أور" (Ur) و "لغش" (Lagash) وكان ذلك قبل عام 2350 ق.م وكان لتلك الممالك فضلها في إقامة مراكز تجارية في كل من عيلام وآسيا الصغرى وكان الجزء الكبير من نتاج تلك المراكز يصب في المعابد السومرية التي كانت تقوم بتشغيل الحرفيين وتحفظ الودائع وتقوم مقام "البنوك" وتجبي الضرائب الظالمة حتى أن المشرفين على المعابد توصلوا إلى استثمار الشعب بدون شفقة مما أدى إلى اليأس بين السكان وجعل الفرصة ملائمة للتخلص من سلطة المعابد وقد تم ذلك في مملكة (لغش) على يد الملك المصلح "أوروكاجينا"

(Urukagina) الذي حكم حوالي 2350 ق.م وهو الذي نفذ انقلابه على كهنة المعابد وسلطتهم و "جعل الحرية تتصدر من جديد" وسوف نعود فيما بعد إلى تفاصيل إصلاحاته.

ولكن هذا المصلح الكبير ومع الأسف تم سحقه بعد وقت قصير من قبل مملكة معادية هي مملكة "أومّا" (Umma)[1] وهي العدو التقليدي لـ (لغش) واقتيد (أوروكاجينا) أسيراً كما تمّ أثناء ذلك إحراق مدينة لغش وقد وصلنا النص التالي الذي يصف الكارثة:

"قام رجال (أومّا) بإشعال النيران
ورُمي "الآنتاسّورا" (Antassura)[2] إلى اللهب
نهبوا الفضة وسرقوا الأحجار الكريمة
هدروا الدم في "تيراش" (Tirash)[3] في القصر
نعم، حتى أنهم أسالوا الدم في معبد (إنليل)
وكذلك الدماء في معبد "باؤ" (Ba - u)[4]".

تلت تلك الفترة مباشرة واعتباراً من عام 2350 ق.م بداية نهوض القوة الأكادية عندما حقق (سرجون الكبير) (2334-2279) أول إمبراطورية حقيقية في المنطقة دامت حتى عام 2154 ق.م حين انهار النظام الأكادي بعد أن أصابه التفكك وتمّ ذلك على يد قبائل (الجوتي) الذين حكموا تاركين إدارة المناطق إلى الحكام المحليين.

ليس الملك السومري (أوروكاجينا) الذي قام بوضع حد لظلم كهنة المعبد حين نفذ عملية الإصلاح ولكن الشعب المظلوم هو أيضاً يمكنه تنفيذ ذلك وهنا يمكن التحدث عن ثورة الشعب التي هي أكثر من عملية إصلاح وعن عنف الثورة

---

[1]- أومّا (Umma): مدينة سومرية على بعد نحو 30 كم إلى الشمال الغربي من (لغش) وكانت على خلاف مستمر معها.

[2]- الآنتاسّورا (Antassura): من أدوات إقامة الطقوس.

[3]- تيراش (Tirash): حي في لغش حيث القصر الملكي.

[4]- باؤ (Ba - U): وهي الإلهة قرينة نينجيرسو إله لغش.

وما يمكن أن تحمله من مآسٍ. هذا ما حدث فعلاً خلال فترة غير بعيدة عن حكم (أوروكاجينا) في مصر الفرعونية وأنه على الرغم من مركزية الحكم الفرعوني وغناه الذي كان يتناقض مع الفقر والظلم الذي كان يعيشه الشعب المصري، من قبل الحكام والكهنة فقد عرفت مصر في عام 2280 ق.م ما عرف بالفترة الوسيطة والتي لم تكن سوى ثورة اجتماعية شديدة العنف، على الرغم مما ألفه الشعب المصري من ميله إلى الابتهاج والاكتفاء بالقليل، فقد عرفت تلك الفترة تمرد الفقراء على الأغنياء وطردهم من منازلهم للحلول فيها وأدى ذلك إلى استقلال المناطق عن الحكم المركزي مما جعلهم يؤسسون "ميليشيات" محلية خاصة بهم لحماية أنفسهم وحماية مكاسبهم.

وبصدد تلك الثورة، وصلتنا مرثية مصرية تصف الحالة التي نتجت عن تلك الحقبة التي دامت ما يقارب العشرين سنة، وحتى ولو كانت هناك مغالاة في عرض الحالة التي وصلت إليها البلاد، فإن النص الذي ألّفه أحد الشعراء في ذلك الوقت واسمه "إيبوير" (Ipouer) يعطينا فكرة عن فداحة الحالة تلك حين يقول:

"تصور أن أشياء وقعت وهي لم تحدث منذ زمن طويل
خُطف الملك من قبل أشقياء....
تصوّر أن بعض الرجال العديمي الإيمان والشرعية
توصلواإلى نهب بلد الملكية
تصور أننا وقعنا في ثورة ضد الأفعى رمز الملكية
فالقصر تمّ اقتحامه في ساعة واحدة...
وأسرار ملك القصر العليا والسفلى تم فضحها.

الذي لم يكن بمقدوره أن يعدّ لنفسه تابوتاً
أصبح يملك مدفناً
الذي لم يكن باستطاعته بناء كوخ صغير
أصبح يملك جدراناً.
تصّور أنّ قضاة البلد تمت ملاحقتهم عبر البلاد

تصوّر أنّ مالكي مجموعة ألبسة، اليوم تكسوهم الأسمال
الذي لم يتمكن قط من النسج لنفسه، أصبحت له ألبسة فاخرة
الذي لم يكن باستطاعته بناء سفينة له
أصبح مالكاً لعدة سفن
والذي كان يملكها ينظر إليها عن بعد:
لم يعد....
وتصّور أن الذي كان يجهل ما هو المزهر
أصبح يملك قيثاراً..".

هكذا كان ينشد نائحاً الشاعر المصري، وفي عودة إلى ما بين النهرين يعيدنا شاعر آخر إلى عالم الآلهة وإلى أسطورة ابتدعها ذلك الشاعر حين تصّور في نوع من التوازي بين المجتمع الإلهي والمجتمع البشري، معتبراً أن المجتمع الإلهي كان مبنياً على أساس طبقي بحيث كان هناك آلهة عمّال يقومون بأعمال السخرة، مكلفين بذلك من قبل سيّد الآلهة العظام، الإله "إنليل" (Enlil)، يساعده محافظ ورئيس عمل.... وكان على آلهة السخرة، حفر مجاري المياه وفتح الأقنية وشق مجرى دجلة والفرات وتكويم الجبال.... وتقول الأسطورة:

"خلال ألف عام عملوا
بعد أن انتهوا من تكويم الجبال
عمدوا إلى حساب عدد سنوات كدّهم
وعندما أنهوا تنظيم الأهوار في الجنوب
عمدوا إلى حساب سنوات كدهم
ألفين وخمسمئة سنة وأكثر
متحملين عبء هذه السخرة
وبدؤوا عند ذلك باللوم والاحتجاج".

ثم يضيف النص بأنهم أوقفوا عملهم وتوجهوا نحو رئيسهم كي يحررهم من سخرتهم الثقيلة، تجمعوا وتوجهوا نحو الإله (إنليل)، يريدون إخراجه من مقره وصرخ أحدهم علينا إعلان الحرب:

أحرقوا أدوات عملهم
رموا إلى النار فؤوسهم
وإلى اللهب قففهم.

ثم تجمهروا أمام معبد (إنليل) سيد الآلهة، الذي تخوف من حركة الثورة تلك، وأرسل من يسعى إلى "آنو" (Anu) إله السماء لينزل إليه كما استقدم إله الحكمة أمامه وهو الإله "أنكي" (Enki) إله الذكاء والحكمة ومهارة الصنع.

ورد نص التمرد هذا، التمرد الأول من ضمن قصيدة طويلة عرفت تحت تسمية "قصيدة الفائق الحكمة" وهي تروي التاريخ الإجمالي للبشرية منذ الخليقة وحتى الطوفان، يقع النص في 1245 سطراً[1] كما أشار إلى ذلك ناسخ القصيدة التي يعود أقدمها إلى حوالي 1650 ق.م.

بنتيجة التمرد، عقد الآلهة العظام اجتماعهم وقرروا أن يحرروا آلهة السخرة وقرروا خلق البشر ليقوموا هم، بتوسيع البلاد والعمل على ازدهارها وتأمين قرابين الآلهة.

يتضح مما عرض سابقاً، أن العدالة وتحاشي الظلم هما من أهم أسس الملكية ولذلك حاول الملوك دوماً خدمة شعوبهم وإزالة الظلم عنها وتحقيق إصلاحات اجتماعية من شأنها إنصاف الجميع، حتى أن بعض الملوك أصدروا مراسيم بإعفائهم من متأخرات الضرائب التي أثقلت كاهلهم وهذا ما تشير إليه الفقرة التالية:

3-4 (ب) الملوك والإصلاح الاجتماعي:

وضح لنا من ضمن ما تمّ عرضه اهتمام الملوك القدماء بتحقيق العدالة ونشرها. وكلما كانت العدالة تغيب عن مجتمع الشعب وتثقل الضرائب والديون كاهله، كان الملك يلجأ إلى إصدار مرسومه بالعفو، مخففاً بذلك من معاناة رعيته.

ومنذ أن اعتبر مفكرو ما بين النهرين أن الملكية نزلت من السماء، وأن الإله هو الذي يختار وينصّب الملوك، أصبح معبد الإله بيته على الأرض وأصبح المعبد

[1]- ورد النص الكامل في ديوان الأساطير (ك2 – ص. 226-276).

قطباً فاعلاً في المملكة. ولكن القصر، مقرّ الملك الحاكم، كان هو أيضاً قطباً آخر يوقن أن عليه حماية الأرملة واليتيم وإزالة الظلم ونشر العدالة التي أسّس لها ملوك سومر، وهذا ما سنعود إليه في نهاية هذه الفقرة التي نعرض من خلالها العلاقة بين القصر والمعبد ومراسيم العفو التي أصدرها ملوك الإصلاح وشغفهم بتحقيق العدالة.

4-3 (ب-1) بين القصر والمعبد

بدأت الفترة السومرية في بلاد الرافدين بإقامة مراكز حكم عديدة مثلتها (ممالك المدن) في كل من مدن (نفّر) و (أور) و (أوروك) و (لغش) و (أومّا) وغيرها وكانت كل مملكة قد اختارت لنفسها إلهاً حامياً لها وأقامت له معبداً وهو بيت عبادته.

ولما كانت الملكية قد نزلت من السماء فقد كان يدير المدينة - المملكة ملك تحت تسميه "إنسي" (Ensi) السومرية التي عرفتها أكاد تحت تسمية "إيشاكّو" (Ishakkou) الأكادية. والإنسي هو لقب لحاكم مدني وديني يطلق على من يتبوّأ أعلى مناصب المملكة ويديرها تحت الإشراف المباشر للإله الذي يمثله.

أما المعبد وقد درجنا على اعتبار أن الممالك - المدن قامت على مركزية المعبد وأقيمت حوله وحول سلطته ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة، إذ كانت تحدث بين القصر والمعبد من وقت لآخر منافسات حقيقية للاستئثار بالسلطة وفقاً لشخصية كل من الطرفين: الملك من جهة وكبير الكهنة من جهة أخرى.

أما حين كان يلجأ بعض الملوك الطموحين إلى توسيع نفوذهم الجغرافي وهم لم يتأخروا عن إطلاق حروب ومناوشات مع الممالك المجاورة بقصد التوسع، مما كان يستلزم تجنيد أفراد الشعب وزيادة الضرائب العامة في المملكة وإطلاق عمليات جباية، لم تكن تخل من الظلم ومن تظلّم الفقراء.

وحين كان المعبد يحصر بين جدرانه وممتلكاته، أي الممتلكات التي هي لإله المملكة من أراض زراعية وقطيع وإنتاجهما وبالإضافة إلى ذلك الإشراف على حرف أقيمت مشاغلها على ممتلكات المعبد الذي كان يستفيد من بيعها مخصصاً للحرفيين مكافأة لعملهم بأقل مما كانوا يستحقون، مما كان يعني زيادة غنى المعبد وإفقار العاملين لديه وعديدة هي الأسباب التي تساهم في إفقار عامة الشعب.

وهكذا حين كانت تتفاقم الحالة ويشعر الملك أن المعبد يعتدي على سلطة الملك ويحرمه من أن يكون "راعياً عادلاً للشعب" ومدافعاً عن حقوقه، ولذلك عندما كانت الديون تتراكم ويستفحل الفقر في المملكة، كل ذلك كان يدفع الملك للتدخل ومجابهة المعبد وتنفيذ ما يلزم وفق الحالة.

4-3 (ب-2) المراسيم الملكية بالعفو العام

وعملاً بالحالة الموصوفة أعلاه فقد درج ملوك سومر القدماء على إصدار مراسيم إصلاحية في المملكة بمجرد تسلمهم الحكم، أو بعد انقضاء فترة سبع سنوات على حكمهم وهم يعملون في ذلك كرعاة للشعب مؤتمنين على مصلحته وعلى نشر العدالة من أجله وحماية الضعفاء والمظلومين.

ثم تبنت بابل هذه العادة تحت تسمية "ميشاروم" (Misharum) المشتقة من فعل "إيشيروم" (Esherum)[1] الأكادي بمعنى الإصلاح ونشر العدالة وهو الفعل الذي يمكن إعادته في العربية إلى فعل (يَسَرَ) و (يَسّر).

تبنت بابل هذه العادة عن ملوك سومر، منذ الألف الثاني لما قبل الميلاد وقد وردت عنها تفاصيل من مملكة "ماري" (Mari) ومن سورية الشمالية.

ويعتقد أن الملك السومري "أور - نامّو" (Ur - Nammu) مؤسس ملكية (أور) الثالثة هو الذي أصدر مثل هذا القرار الإصلاحي تحت تسمِيَتِهِ السومرية "نيج -سي - سا" (Nig - Si - Sa) مقلداً بذلك ما فعله قبله الملك "أورو كاجينا" (Urukagina) ملك لغش الذي حكم حوالي 2350 ق.م.

كما أننا نعلم أن الأشخاص الذين كانت توكل إليهم ممتلكات القصر، مقابل مخصصات سنوية بقصد استثمار الممتلكات الملكية من أراض زراعية وغيرها كان يتم إعفاؤهم من المستحقات العائدة إليهم في حال حدوث كوارث طبيعية وظروف قاهرة تصيب المحاصيل، وكان يتم الإعفاء بصدور مرسوم خاص بذلك يصحح أوضاعهم.

أما حول الأشخاص الذين كانوا يغرقون في الديون ويعجزون عن تسديدها ويتم استثمارهم من قبل المرابين دائنيهم بحيث يضطرون إلى تقديم فرد من عائلتهم

---

[1]- إيشيروم (Esherum): وقد حافظت العربية على (شرم الشيء = شقه) و (شرم بفلان من حاله = أعطاه قليلاً).

أو تقديم أنفسهم للخدمة لدى دائنيهم كعبيد لديهم، في مثل تلك الأحوال كانت المراسيم الملكية أيضاً تلغي ديونهم وتحررهم من عبوديتهم، كما كان على الموظفين الملكيين تطبيق المرسوم الملكي ومعاقبة كل من لا ينفذه من الدائنين كأن يعود المستعبد إلى وضعيته السابقة كرجل حرّ أو يعود الحقل الذي صودر من قبل الدائن إلى مالكه الأصلي.

ثم عملاً بسياسة المملكة الدعائية، كان الملك يصدر مرسومه الإصلاحي خلال احتفال رسمي حيث كان يعتبر نفسه ممثلاً للإله "شمش" (Shamash) إله العدالة للفترة الأكادية ومن الفترة البابلية القديمة التي تلت حكم (حمورابي) وصلنا مرسومان إصلاحيان:

• أصدر المرسوم الأول الملك "شمشو - إيلونا" (Shamshu - Iluna) (1749-1712) ق.م وهو ابن حمورابي الذي تولى الحكم من بعده، فأصدر لدى توليه العرش المرسوم الإصلاحي (الميشارو) وسجّلت المحفوظات الملكية هذا الحدث في السنة الثانية من حكمه: وتبعاً لنشاط ذلك الملك الاجتماعي فإنه خصص السني (3 و 4) من حكمه للاهتمام بمشاريع الري كما سجلت سني حكمه (5 و 6 و 7) تقدماته التعبدية وصيانته للمعابد. ولكن المملكة عرفت اعتباراً من السنة التاسعة أزمة اقتصادية نتجت عن محاولات المدن السومرية التي أخضعها (حمورابي)، التمرد على الحكم المركزي، إلى أن وصل الضيق الاقتصادي إلى حد اضطر معه الملك (شمشو - إيلونا) إلى إصدار مرسوم إصلاحي جديد للتخفيف عن شعبه.

• أما الملك "عامي - صادوقا" (Ami - Sadoqa) (1646-1626) ق.م فقد عمد إلى إصدار مرسومه الملكي (الميشاورم) من أجل تحسين حالة البلاد الاقتصادية التي تدهورت بعد أن عرفت تلك الفترة حركات (الكاشيين) و (الحوريين) و (الحثيين) حتى أنه خلال حكم (شمشو - ديتانا) آخر أسرة ملوك بابل الأولى، وضع الحثيون حداً لتلك المملكة على يد "مورسلّي" (Murselli) الأول (1625-1595) ق.م أما بصدد الميشارو الذي أصدره (عامي - صادوقا) يمكننا عرض بعض التفاصيل كما اشتمل عليه في بداية أسبابه الموجبة وهي كما يلي:

" ... حيث أن متأخرات المزارعين والرعاة والمكلفين وجميع المديونين تجاه المملكة (كل تلك المتأخرات) تمّ الإعفاء من تسديدها أما فيما يتعلق بسوق بابل (كاروم بابل) وأسواق المناطق فإن متأخرات تسديد الرسوم، تمّ أيضاً الإعفاء منها ...."

هكذا بدأ المرسوم الإصلاحي الذي أصدره (عامي - صادوقا) وذلك جعل منه فعلاً راعياً لشعبه عمد إلى حماية الفقراء المستثمرين من قبل دائنيهم حين مكنهم من استعادة جميع مرهوناتهم التي كانوا قد قدموها لهم.

وهناك إصلاح آخر عرفته بابل وأطلقت عليه تسمية "كيتّو" (Kittu) وفسّرت بمعنى (الأمان) أي أن الملك كان عليه أن يحقق الأمان لرعيته أي أن يجعل رعاياه يشعرون أنهم يقفون على أرض ثابتة وأن الشبكات التي تخدم مصالحهم تم صيانتها بانتظام وأن (الأمان) يسمح للجميع أن يعملوا وأن يؤسسوا عائلات لا تخشى الانهيار أمام الصعوبات غير المرتقبة.

• عرف الساحل الكنعاني، على شاطئه السوري الفلسطيني (الميشارو) و (الكيتّو) وبتأثير من بابل ومن الساحل تبنّت التوراة العبرية (الكيتّو) تحت تسمية "صيداقاه" (Sedaqah) التي ترتبط بمعنى يتقارب مع (الحكمة) أكثر من ارتباطها بمعنى العدالة، كما اعتبر ذلك بعض المفسرين وهي تقارب المعنى الفرعوني لتسمية "ماعت" (Maat) التي تعبر عن نوع من الحكمة تؤمن التناغم بين الكون (الكوسمي) وإدارة البلاد وكذلك تستلزم من قبل الفرعون المناقب التي من شأنها جعل البلاد تعيش في بحبوحة و (أمان).

أما (الميشارو) فقد تبنته التوراة تحت تسمية "ميشفات" (Mishphat) التي تشمل معنى الحقوق والعدالة وفق التقاليد التي ينتج عنها التشريع وبذلك يكتمل تبنّي مفهوم (الميشارو) و (الكيتّو) المرتبطين بالملكية وقواعد ممارستها التي تبنتها المرويات التوراتية في وقت متأخر بعد أن تعرّفت على ما عاشته في (بابل) بعد السبي وخلال فترة الحكم الأخمينية بعد سقوط بابل على يد (كورش) الفارسي.

4-3 (ب-3)عودة إلى ملوك سومر والعدالة

نختتم هذه الفقرة الثالثة بعرض نصوص عديدة أشرنا إلى بعضها آنفاً دون إثباتها تركها لنا مفاخرون ملوك سومر والتي نستعرضها كما يلي:

• يفاخر الملك "أورو - كاجينا" (Uru - Kagina) الذي حكم في لغش حوالي 2350 ق.م بأنه أبعد الموظفين النفعيين وهو الذي نفذ انقلابه على كهنة المعبد وسلطتهم وجعل "الحرية تتصدر من جديد" وقد أشرنا إلى ذلك في الفقرة 1-3 (آ)، ونضيف هنا إلى أن (أوروكاجينا) ورث حالة صعبة عرفتها البلاد سبّبها الملك السابق "أور - نانشي" (Ur - Nanshe) الذي حكم نحو2500 ق.م وهو الذي أسس ملكية (لغش) الأولى وهو وخلفاؤه أضعفوا مملكة (لغش) حين عمد القصر إلى وضع يده على كل شيء وحتى على ممتلكات المعبد وأطلق موظّفيه في كل الأنحاء للجباية وفرض الأتاوات بسبب الحرب، إلا أن الظلم استمر بعد انتهاء الحرب وبقي على ما كان عليه حين أراد القصر وزبانيته الاحتفاظ بما سلبوه.

• وقد وصفت "مجموعة الأخبار السومرية" الحالة التي عرفتها (لغش) قبل إصلاحات أورو- كاجينا كما يلي:

"عمّ الظلم وتحميل الشعب
ضرائب ثقيلة على كل شيء".

كما وصلنا نص آخر يعلن فيه محرر سومري بمرارة أنه:

"على طول وعر ض البلاد،
وفي كل مراحل الحكم كان هناك
جباة وكان مراقب السفن، يصادر السفينة، ومراقب
الماشية يصادر كبيرها وصغيرها
وكانت هناك ضرائب على كل شيء
إلى أن وصل إلى الحكم (أورو– كاجينا)
فأقام العدالة وأعاد للموظفين حريتهم
وعزل المراقبين وجباة الظلم
وأبعد النفعيين

كما خلّص البلاد من المرابين
واللصوص والمجرمين
وأيّ وجيه غنيّ – لم يعد يجرؤ
على ولوج بستان أمٍّ فقيرة
أو بستان أي رجل فقير لتجريد أشجاره
عن ثمارها والسطو عليها
كما كان يحدث ذلك قبلاً".

• ويقول نص آخر أن (أورو- كاجينا) تعاهد[1] مع إله لغش (نيجيرسو) موضحاً بأنه:

"لن يسمح بأن تتحول الأرامل
ويتحول الأيتام إلى ضحايا
للرجال الأقوياء".

• أما الملك "أور - نامّو" (Ur - Nammu) مؤسس مملكة أور الثالثة (2112-2095) ق.م فقد ورد في مقدمة نص تشريع وصلنا عنه بأنه:

"سهر على ألا يصبح اليتيم ضحية للغني
وأن لا تصبح الأرملة ضحية الرجل القوي
وأن لا يصبح الرجل الذي يملك مثقالاً
ضحية من يملك ستين مثقالاً".

كما أن (أور - نامّو) يفاخر بأنه:

"جعل العدالة تعم وفقاً لقوانين
الإله (بابّار)[2]".

والإله "بابّار" (Babbar) نفسه هو الذي

"وضع العدالة والحق على شفاه

---

[1]-نلاحظ أن"العهد" بين (أورو- كاجينا) والإله غايته الدفاع عن حق الأرامل والأيتام وليس كما عرف "بالعهد التوراتي" الذي يعطي بموجبه الإله (يهوه) "أرض كنعان" إلى بني إسرائيل ويعدهم بطرد سكانها أمامهم؟

[2]- بابّار (Babbar): إله القمر السومري.

الملك "شولجي" (Shulgi)[1]

الراعي ذو الكلمة الأمينة".

• أما (جوديا) (حوالي 2120) وهو من أشهر ملوك لغش وسوف يرد ذكره فيما بعد فقد صرّح بأنه:

"أطلق الحرية لشعبه ومنع الكاهن الأكبر

من الدخول إلى بستان أم فقيرة لجمع الحطب

أو لتحصيل ضريبة على الثمار".

• وفي عودة إلى (أور - نامّو) الملك الذي سوف نشير إلى تشريعه في الفصل الخامس، فإن مطلع مقدّمة تشريعية حملت العنوان التالي:

"تنفيذاً لإرادة الإله (شمش)

وبناء على حكمته

أقمت العدالة إلى الأبد".

• أما مقدمة تشريع حمورابي وخاتمته سوف نقدم عنها تفاصيل كاملة في الفصل الخامس لدى عرض موضوع الملوك المشرعين.

3-5- مدرسة الملوك

مدرسة الملوك بالنسبة للأمير ولي العهد تعني الاهتمام به منذ صغره بغية إعداده لتسلم العرش في الوقت المناسب وقد كانت المرحلة الأولى من تعليمه تبدأ بتعليمه فن الكتابة والحساب والمساحة ولا يعني دخوله مدرسة المعبد إلا وضعه تحت حماية الإله أو الإلهة صاحب أو صاحبة المعبد، وفي هذه المرحلة أيضاً يتم إطْلاعه على مآثر أسلافه كما تغرس فيه منذ الصغر المناقب التي يجب أن يتحلى بها الملك، ملك المستقبل بالنسبة إليه.

تستكمل هذه المرحلة بدروس خاصة ذات مستوى أعلى مثل تآلفه على قراءة معالم السماء والتعرف على أن علوماً عديدة تمارس في المملكة كالطب وإعداد العقاقير والتعرف على الأعشاب الطبية وغير ذلك من معارف البلاد.

---

[1]- شولجي (Shulgi): (2094-2047)ق.م وهو ملك أور.

ثم حين يشتد ساعده يتدرب على قيادة المركبات ورمي السهام والتعرف على الأسلحة التي سيستعملها في المستقبل وكذلك ركوب الخيل كما يرافق والده أو مدربه إلى رحلات ممارسة الصيد.... يلتحق بعد ذلك فيما سمّي "بيت ريدوتي" (Bit - Riduti) ومعناه (بيت ولاية العهد) أو (بيت الخلافة) وهذا ما يعادل مدرسة الإدارة حيث يطلع على كل ما يتعلق بإدارة البلاد ومن المرجح أن تلك المدرسة كانت تشتمل على أقسام تضم الأمراء المسبيين من البلاد الأخرى التابعة للمملكة القوية أو للإمبراطورية وفق الفترات التاريخية حيث كانت تتم مآلفة الأمراء الأجانب على الإدارة المحلية وحسن معاملتهم بغية إعدادهم لممارسة مهمة التابع الحليف حين يسلمون مسؤوليات في بلدهم الأصلي أو في بلد آخر.

وفي مرحلة تالية، يحضر ولي العهد الشاب إلى جانب والده المقابلات ويستمع مع الملك إلى الشكاوى والتظلمات التي تُعرض وإلى الأحكام التي يصدرها والده بصددها.

ومن الطبيعي أيضاً أن يتدرب ولي العهد الشاب على كافة فنون الحرب، قد يقود وحده حملات عسكرية قبل تسلمه الحكم.

لم يترك لنا ملوك ما بين النهرين نصوصاً تفصيلية عن إعداد ولي العهد لممارسة الملكية والمراحل المشار إليها آنفاً أمكن استنتاجها عبر قراءات عديدة لذلك فإن أفضل ما يمكن تقديمه للقارئ هي التفاصيل التي وصلتنا عن أشهر ملوك آشور وهو (آشور - بانيبال) (680-627) ق.م وهو الذي جعل من نينوى عاصمة ثقافية احتضنت مكتبة (آشور بانيبال) الشهيرة، والذي كان له الفضل في نسخ وحفظ عدد كبير من النصوص القديمة التي دلّت على غنى حضارة ما بين النهرين وبالإضافة إلى ذلك، فإننا نعلم الكثير عنه وعن دور جدته في ترسيخ ملكيته وهو أيضاً يحدثنا عن نفسه وعن شخصيته وهذا ما نشير إليه في الفقرتين التاليتين.

3-5 (آ)إعداد (آشور بانيبال) على ممارسة الملكية:

كان (آشور بانيبال) صغير السن حين تمت تسميته لولاية العهد خلفاً لوالده (أسرحدون) (680-669).

كما تمّ الاعتراف به وتثبيت ملكيته المستقبلية في بداية عام 672 ق.م بواسطة قسم عام من قبل سكان الإمبراطورية والتابعين لها.

ثم لدى توليه الحكم بعد وفاة والده (أسرحدون) في عام 669 عمدت جدّته "زاكوتو" (Zakutu)[1] إلى تنظيم القسم العام "آدي" (Adé) الذي درج عليه الآشوريون تثبيتاً لملكية العاهل الجديد وذلك بمثابة (مبايعة) عامة له وهو أيضاً قسم ولاء للملك الجديد.

إن أول نقش مكتوب قبيل تولي (آشور بانيبال) الحكم، أعيد إلى عام 668 ق.م وهو يشير بالتفصيل إلى مسار تدريب الملك المرتقب على ممارسة ملكيته التي كما يعتقد لم تكن بعد منتهية لدى وفاة والده.

ثمّ استكمل النص المشار إليه بواسطة عدد من نصوص الحوليات الآشورية المختصرة وبواسطة قصائد تمجيد للملك إذ تقدم لنا تلك المصادر معلومات قيمة وفريدة حول إعداد الملك وتدريبه كأمير آشوري معّد لولاية العهد.

وُضِع (آشور بانيبال) بعد ولادته بفترة وجيزة في معبد الآلهة (عشتار) وكان ذلك يتبع عادة غير مألوفة على اعتبار أن إخوته هم أيضاً وضعوا في معابد أخرى بحماية الآلهة.

في ذلك الوسط كان يباشر بمهمة تعليم الأمير وتدريبه على ممارسة فن الكتابة الذي كان يستكمل فيما بعد بدروس من قبل مثقفي المملكة ومن بينهم "كيني" (Keni) وعالم الفلك والتنجيم "بالاسي" (Balasi) وهذا ما يفسر ميل آشور بانيبال للتبحّر في تحصيل العلوم الذي رمزت إليها مكتبته الشهيرة في نينوى مع الإشارة إلى أن بعض اللوحات تحمل في نهايتها ما يشير إلى أنها نسخت بيد (آشور بانيبال) نفسه وليس من المستبعد أن تكون تلك اللوحات هي من مجموعة الملك الخاصة.

كما أن (آشور بانيبال) دُرِّب أيضاً على النشاطات التقليدية في البلاد التي هي من النشاطات الملكية كقيادة المركبات الحربية ورمي السهام والتدرب على استعمال كافة الأسلحة المعمول بها لدى الجيش.

ثم بعد دخوله ما يعادل "مدرسة الإدارة" أي (بيت ريدوتي) وقد أشرنا إلى تلك المدرسة آنفاً كان يتدرب على فن الإدارة وممارسة الحكم كما كان يحضر الجلسات التي كان يعقدها والده لهذه الغاية.

---

[1]- زاكوتو (Zakutu): هي أميرة آرامية اسمها الآرامي (نقيه) أعطتها آشور اسم (زكية) وهي إحدى زوجات سنحريب الذي خلف والده سرجون الثاني وكان يرافقه في جلسات حكمه، زاكوتو هي إحدى النساء القليلات اللواتي أثرن على السياسة الآشورية و (أسرحدون) هو أحد أبنائها.

وقد أشرنا أعلاه بأن مدرسة الإدارة كان تعدّ أيضاً الأمراء الأجانب المسبيين لممارسة دور الحاكم الحليف في بلده الأصلي أو في بلد آخر إذا ما تطلب الأمر ذلك كما أنه لدينا أمثلة عديدة عن خلع حاكم محلي في بلد تابع بعد إخماد تمرد ثبتت فيه مسؤوليته وتعيين حاكم آخر محلي أو من خارج البلد التابع، كما حدث ذلك في كل من فلسطين ولبنان بشكل خاص وكذلك في بقية أنحاء الإمبراطورية.

كما أن مصر الفرعونية درجت هي أيضاً على تعيين حكام من خارج المنطقة التابعة كما أشارت إلى ذلك مراسلات (تل العمارنة) في القرن الرابع عشر ق.م حيث يكتب حاكم محلي للفرعون معترفاً بأن "ليس أبي أو أمي هما اللذان سلماني هذا الملك ولكن سيدي الفرعون هو الذي عينني"، ذلك كان معنى الرسالة التي تلقاها أمينوفيس الثالث من حاكم في فلسطين.

يمكننا قبل إنهاء هذه الفقرة الإشارة إلى أن آشور بانيبال كان أصغر إخوته وان لجدته (زاكوتو) دورها في اختياره كولي للعهد.

وبصورة عامة كان ملوك آشور يعلقون أهمية كبيرة لعملية اختيار ولي العهد على اعتبار أن مستقبل البلاد يرتبط بذلك الاختيار ونحن نعلم أن (سنحريب) (704-681) حين عمد إلى اختيار خلف له، استشار رأي الإلهين "شمش و أدد" (Shamash & Adad) بواسطة هاتف إلهي (كاهن أو كاهنة) طارحاً سؤاله إذا ما كان اختياره لابنه (أسرحدون) هو القرار الصحيح؟ وكانت الإجابة "إنه هو خليفتك".

ولما عمد (أسرحدون) (680-669) والد (آشور بانيبال) إلى اختيار ولي عهده، لا نعلم إذا ما كان قد استشار الآلهة وكما أشرنا فإن (زاكوتو) سهّلت عملية الاختيار هذه.

أما آشور بانيبال فقد عرف نفسه بقوله:

"أنا (آشور بانيبال) خليفة "آشور" (Assur) و "نينليل" (Ninlil)[1]
والذي (آشور) و "سين" (Sin) سيّد التاج
لفظا اسمي منذ أيام بعيدة من أجل الملكية
وشكلاني في رحم والدتي وذلك من أجل
الحفاظ على بلد آشور".

---

[1]- نينليل (Ninlil): قرينة إنليل.

كما نعلم من مصدر آخر كيف بلغ (آشور بانيبال) قمّة ثقافة عصره متقناً علومه وفنونه وهذا ما سنعود إليه في الفقرة التالية:

3-5 (ب) شخصية آشور بانيبال ومكتبته الشهيرة:

أشرنا آنفاً إلى أن حسن تدريب (آشور بانيبال) بالإضافة إلى إمكانياته الشخصية وانغماسه في العلم والمعرفة منذ طفولته، أكسبه صفة الانفتاح على جميع النشاطات العلمية والفكرية التي كانت تمارسها المملكة وخاصة ما كان على الملك معرفته لكونه سيحمل مسؤولية إمبراطورية شاسعة وقد اتضح ذلك بشكل خاص من شغفه بتأسيس المكتبة التي عرفت باسمه في عاصمته (نينوى)، إذ جمع فيها ما يقارب ثلاثين ألف لوحة تغطي القديم والحديث ومختلف النشاطات التي عرفتها بلاده.

شغلت المكتبة عدة قاعات من قصر نينوى وكانت جميع لوحاتها مصنفة ومرقمة ومبوبة حتى أن بعضها كان يحمل كتابة تشير إلى أنها نسخت من قبل (آشور بانيبال) نفسه، وليس من المستبعد أن تكون من مجموعته الخاصة كما أسلفنا.

تمكن (آشور بانيبال) من جمع عدد كبير من اللوحات السومرية اللغة واللوحات الأكادية، كما أمر بنسخ ما كان موجوداً في مكتبات أخرى، يتراوح قدم لوحات المجموعة تلك بدلالة محتوياتها بين (2800-607) ق.م، وكان (آشور بانيبال) يوصي رسله وسفراءه إلى مختلف أنحاء البلاد بالتفتيش عن اللوحات النادرة التي تناسب مكتبته ونسخها وإرسال نسخها إلى القصر لتتصدر مكتبته[1].

كانت الغيرة على الحفاظ على محتويات المكتبة وبخاصة اللوحات النادرة فيها حتى أن الكثير منها كان يحمل الجملة الملكية التالية:

"كل من يسرق هذه اللوحة...
فليسحقه (آشور) و (بيليت) بغضبهما
وليمحيا اسمه واسم ذريته
عن سطح الأرض".

---

[1]- نذكر بهذه المناسبة أن الخليفة (المأمون) كان هو أيضاً يسعى للحصول على المخطوطات النادرة ويقدم وزنها ذهباً ثمناً لها.

كما ترك (آشور بانيبال) نصوصاً تشير إلى نشاطه الأدبي والمعماري وممارسة النشاطات التقليدية المعمول بها في البلاد وبالإضافة إلى ذلك فإن إقامته في مدرسة (الإدارة) مكنته من معرفة كيفية ممارسة الحكم وترسيخه، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، بحضوره جلسات المراجعات التي كان يعقدها والده والاستماع إلى التظلمات والشكاوى واتخاذ والده القرار بشأنها.

تابع (آشور بانيبال) خلال السنوات الأولى من حكمه الخطوط العريضة لسياسة والده (أسرحدون)، فأكمل ترميم المعابد الرئيسية في بابل، وخلال شهر أيار من عام 688 قام بإعادة بهجة اللباس والزينة البراقة إلى تماثيل "بيل - مردوك" (Bel - Marduk)[1] وإلى بقية آلهة أكاد التي كانت قد نقلت إلى (آشور) من قبل سنحريب وأتمّ إعادتها وتنصيبها في بابل باحتفال رسمي.

تُوّج "شمش - شوم -أوكين" (Shamash - Shum - Ukin)[2] الأخ الأكبر (لآشور بانيبال) ملكاً على بابل، كما تم تعيين الأخ الثاني ككاهن أعظم للإله القمر (سين) في حرّان، والأخ الثالث عيّن هو أيضاً ككاهن أعظم في مدينة أخرى.

ومن حسن الإدارة، أن يدشّن (آشور بانيبال) مهامه الملكية بترميم المعابد والاهتمام بتماثيل الآلهة وإعادتها إلى نضارتها الأساسية وفي ذلك ما يرضي شعب بابل ويدخل البهجة إلى قلبه بعد أن تملكه اليأس أمام ما هدمه الأعداء أو ما أتى عليه الزمن بالنسبة للمعابد، وهو الذي أشار في نصب تذكاري:

"..... بحزن ودموع، بدأت
ترميم ما هدمه الأعداء
وأنهيت هذا العمل بالفرح والبهجة".

تمتع (آشور بانيبال) بشخصية قوية، كما أنه تفوق في العديد من النشاطات وشؤون الحياة المختلفة، ومهما تضمن النص الذي زيّن صدر مكتبته، متحدثاً عن نفسه من مغالاة، فإن ذلك النص يمثل حتماً شخصية (آشور بانيبيال) الفذة حيث يقول:

---

[1]- بيل - مردوك (Bel - Marduk): إله مدينة بابل بطل الخليقة والتكوين.

[2]- شمش - شوم -أوكين (Shamash - Shum - Ukin): وهو الاسم الذي تبنته التوراة في قصة (شمشوم).

"أنا (آشور بانيبال) تفهمت حكمة الإله "نابو" (Nabu)
تعلمت جميع الفنون المتعلقة بالكتابة على اللوحات
تعلّمت الرمي بالقوس وامتطاء الخيول
وقيادة المركبات ومسك الأعنّة...
وهبني "مردوك" (Marduk) الإله العاقل المعرفة والذكاء،
والإلهان "نيروت" (Nerout)[1] و "نرجال" (Nergal)
منحاني الرجولة والقوة التي لا تضاهيها قوة
تفهمت مهنة الحكيم "آدابا" (Adapa)[2]
والأسرار المخبأة لفن الكتابة
أرصد وأقرأ في المجالات السماوية وعلى الأرض
حضرت اجتماعات الموظفين
راقبت عمليات الرصد وشرحت كنه السماء
مع الكهان والعلماء
تلوت عمليات الضرب والقسمة المعقدة
التي ليست ظاهرة مباشرة
المقاطع السومرية الجميلة والغامضة
والنصوص الأكادية التي يصعب حفظها غيباً
كنت أرددها ببهجة
امتطيت المهار وأهمدتها بعناية فائقة
رميت بالقوس ورميت السهام رمز المحارب
كما رميت الرماح الطويلة المرتجفة
كأنها حراب قصيرة
مسكت العنان كسائق المركبات....

---

[1]- نيروت (Nerout): أحد آلهة العالم السفلي.

[2]- آدابا (Adapa): تمكن بمعرفته وقوة كلمته بكسر جناح ريح الجنوب وصعد إلى سماء آنو ليحاكم وكاد يحصل على الحياة الأبدية وقد يكون الإله (إيا) هو الذي حال دون ذلك.

أشرفت على إدارة مناسج الأتراس القصبية
ولوحات الدروع الواقية للصدر
توصلت للمعلومات التي يصل إليها الموظفون
من جميع الفئات حين يبلغون سن النضج
وفي الوقت نفسه تعلمت ما يجب معرفته
لحكم الشعوب واتبعت مساري الملكي".

ويمكن القول بأن (آشور بانيبال) لخّص لنا ما تعلّمه وما درّب عليه وما هو متفوق في أدائه ويمكن القول بأنه تفوق على ما يظهر في كل شيء.

برع (آشور بانيبال) في الصيد وهناك نقوش تمثله في حملات صيد الأسود كما أنه تحدث عن ذلك في نص آخر هو التالي:

"أنا (آشور بانيبال) ملك العالم
ملك آشور الذي حباني الإلهان
(آشور) و (نينليل) قوة لا تضاهيها قوة
الأسود التي قتلتها
سلّطت عليها قوس عشتار
المخيف سيّدة المعارك".

قاد (آشور بانيبال) معارك حربية وانتصر فيها حتى أنه أخضع مصر لفترة وتلقى جزيات ممالك عديدة.

وكما أوضحنا في تقديم هذا الكتاب بأن حروب الملوك والتوسع وبناء الإمبراطوريات جميعها لا تدخل في المآثر التي يعرضها هذا الكتاب.